اجتهادات
تكلفة رفض التغيير

الصراع بين القوى المحافظة والرجعية من ناحية، والقوى التقدمية النازعة إلى التغيير من ناحية ثانية، قديم فى أعماق التاريخ الإنسانى. فقد شهد التاريخ أنماطاً متعددة لهذا الصراع. وكان أكثرها شيوعاً نمطان أولهما الصراع بين حكام يريدون المحافظة على سلطتهم بأى ثمن، ومعارضين يبحثون عن التغيير من أجل وقف هذا التدهور وفتح باب للإصلاح.

أما النمط الثانى فهو الصراع بين مفكرين وفلاسفة ومثقفين. وأياً كانت تفاصيل هذا الصراع فى كل حالة حدث فيها، يجوز اختزاله فى المناظرة بين المبدأ المحافظ الرجعى القائل (ليس فى الامكان أبدع مما كان) والمبدأ التقدمى - الثورى الذى يقول (بل فى الامكان أفضل من أى مما كان).ومثلما يُشار عادة إلى الصراع الفلسفى بين أبو حامد الغزالى وابن رشد فى الثقافة الإسلامية، يُعد التضاد بين دى ميستر وفولتير نموذجاً له فى الثقافة الغربية0 ولكن الصراعات الفكرية والسياسية بين المحافظين الرجعيين والتقدميين أنصار التغيير فى عصرنا الراهن صارت أكثر تعقيداً فى محتواها دون أن يغير ذلك فى جوهرها. كان السجال الفكرى حول المحافظة على أى وضع قائم أم تغييره مغرقاً فى التجريد حتى أوائل القرن التاسع عشر. ولكنه أخذ يقترب من الواقع تدريجياً مع تطور وسائل الاتصال التى أتاحت لكثيرين متابعة الحوارات بين أنصار القديم ودعاة

التجديد.ولذلك كان من الضرورى تبسيط محتوى هذه الحوارات وربطها بواقع الناس وحياتهم. وكان التطور الأكثر أهمية فى هذا الاتجاه هو ربط الحوار حول القديم والجديد بمسألة التكلفة بمعناها الواسع، وليس الاقتصادى والمالى فقط.

وأتاح هذا التطور المهم كشف أن هناك ظلاً لمرجعية دينية وأخلاقية كامنة فى توجهات المحافظين والرجعيين بما فى ذلك أكثرهم علمانية وليس فقط مدنية.

فالإصرار على عدم قدرة الانسان العادى على المشاركة فى صنع مستقبله وتغييره ينطوى ضمناً على اعتقاد فى وجود أشخاص تختارهم العناية الإلهية للقيادة0 فإذا كان هؤلاء الأشخاص موجودين لابد أن يكون الوضع فى أفضل حال.

وربما يكون هذا النوع من التفكير، من أهم الخسائر التى ينبغى إدراجها ضمن تكلفة رفض التغيير فى هذا العصر.